# طيف أحلامي
# شتات الطفولة .. أحلام وطموحات تصل حد السماء

سناء سعيد شلطف

سناء سعيد شلطف

عندما مسكت قلمي لأكتب رحلتي مع التعليم، سرعان ما تبادر إلى ذهني تلك الصورة التي رسمتها في مخيلتي لطبيبة بارعة في تخصصها، تعالج أدق الحالات، ولا تفقد الأمل في علاج مرضاها، تلك الصورة لم تغب عن ذاكرتي، ولن تغب ما حييت.

كيف لي أن أنسى نبأ قبولي في الجامعة الأردنية في كلية الآداب تخصص اللغة العربية العام 1991؟ أهذا ما كنت أصبو إليه طوال سنوات دراستي؟ أهذا ما سعيت جاهدة إلى تحقيقه؟ ألهذا الحد الاستهتار برغبات الناس وطموحاتهم؟ الجامعة الأردنية خصصت ما نسبته 5% فقط من المقاعد الدراسية للطلبة الفلسطينيين، وأنا حصلت في الثانوية العامة على معدل 96.8% تخصص علمي من المملكة العربية السعودية، حيث انتقلنا للعيش هناك مع أبي بسبب ظروف الانتفاضة الأولى، هذا المعدل أهلني للقبول في كلية الآداب!

أهذه ضريبة الغربة والمنفى أم ضريبة الاجتهاد؟ سؤال لا يزال يراودني.

كنت أشعر بجمر يحرق داخلي عندما أرى طلبة كلية الطب من الأردنيين الذين لم يحصلوا على معدل يتجاوز 80% يتجولون في أنحاء الجامعة بدافع أنهم "مكرمة جيش، مكرمة عشائر، مكرمة معلمين ... وما إلى ذلك"، بينما أنا أتجول في كلية الآداب لأصبح في المستقبل معلمة، تلك المهنة التي لم تخطر لي على بال، ولم أتذوقها يوماً، ويتبادر إلى ذهني صورة فئة من المعلمات يضربن يصرخن ويعاملن بقسوة ويعاقبن جماعياً.

طفولتي مشتتة ما بين فلسطين وطني الذي يسكنني والسعودية التي استهوتني أيضاً، تلميذة صغيرة ذكية مثابرة اعتادت أن تعتمد على نفسها في المذاكرة، وترفض المساعدة من أحد، وتسمع كلمات الشكر والثناء من معلمات المرحلة الأساسية في مدرسة الوكالة، فهذه المعلمة تكافئني بقالب من الشيكولاتة، وأخرى بكلمات لطيفة، وأخرى بقبلة تطبعها على جبيني، وأخرى بكلمة خفيفة تدغدغ عاطفتي.

معلمتي عفاف في الصف الثالث، قالت لأمي عندما حضرت إلى المدرسة لتطلب إذناً لتصطحبني معها في رحلة إلى يافا خلال الدوام، خذيها هي تستحق كل الهدايا وكل المشاوير، كم فرحت لذلك!

أذكر معلمتي نجوى إمام التي لم تألُ جهداً في تبسيط مادة الرياضيات وتوضيحها وتجهيز أوراق العمل التي تمكننا من إتقان عمليات الضرب والقسمة مع كثرة الممارسة والحل.

ومع هذا، لا أنسى قسوة وأنانية بعض المعلمات اللواتي يعاقبن الطالبات بالضرب والكلمات الجارحة، حتى أنا لم أسلم من العقاب الذي كان ينالني تحت طائلة العقاب الجماعي دون ذنب.

ذات يوم، كنت في الصف العاشر، كنا نقف في الطابور الصباحي ووصلت إحدى زميلاتي متأخرة قليلاً، رغم أنها ملتزمة ومجتهدة وطرحت السلام على الطالبات، فما كان من مديرة المدرسة إلا أن أهانتها أمام الجميع قائلة لها: لماذا لم تمشطي شعرك؟ لماذا لم تستحمي؟ دون أن تراعي اهتماماً لظروف تلك الطالبة، وبعد دخولنا إلى غرفة الصف تبين أن زميلتي تأخرت لأنها كانت ترافق والدتها في المشفى منذ الليلة الماضية.

وكيف لي أن أنسى وحشية إحدى معلماتي في المرحلة الثانوية وكانت سعودية الجنسية، حيث كنت في قاعة تقديم الامتحانات، وغادرت جميع الطالبات باستثناء أنا وطالبة أخرى غير مجتهدة، المعلمة المراقبة هي خطيبة أخيها، وأخذت المعلمة تلح علي بتسليم ورقة الامتحان فرفضت ذلك، وعندما شعرت المعلمة بقرب انتهاء مدة الامتحان مسكت ورقتي وشرعت في تنقيل الإجابات للطالبة الأخرى، استشاط غضبي وتوجهت فوراً لمديرة المدرسة، وسردت لها ما حدث، وفي اليوم التالي نلت عقاباً من المعلمة أمام الجميع، وادّعت إني كاذبة.

هذا العقاب ترك أثراً في نفسي يجعلني أرفض كل أشكال العنف تحت أي ظرف، وأحث باستمرار المعلمات على ضرورة احترام الطالبات ومعاملتهن بالحسنى.

أنهيت المرحلة الجامعية في ثلاث سنوات كي أتخلص من شبح كلية الآداب، وبعد عام تقدمت بطلب توظيف لمديرية التربية والتعليم، وتم قبولي مباشرة.

وهنا تبدأ المحنة، وتبدأ معاناتي، وتعود الأحلام تراودني وترسم لي صورة الطبيبة الماهرة، وأتوجه إلى المدرسة مع زوجي في سيارته، وسؤال مؤلم يراودني كيف لي أن أمتهن مهنة وأنا لا أحبها؟ هذا هو الامتحان الصعب، وبدأ شريط ذكرياتي يعود بي إلى أيام الدراسة، لأقتبس منها ما كان له أثر إيجابي عليَّ، وأترك ما كان له أثر سلبي بالطبع، ووضعت نصب عيني أن حبي لمهنتي وقبولي لها أساسي، فإن لم أحب مهنة التدريس كيف لطالباتي أن يحببنني؟ وكيف لهن أن يحببن المادة؟

كنت أرى في عيون طالباتي ما يوقظ ضميري لأتفانى من أجلهن.

الطموح يدق على بابي، فقررت بعد عامين من تعييني أن ألتحق ببرنامج الدراسات العليا، والحصول على شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها من جامعة أبو ديس، سعياً مني إلى تطوير ذاتي، ولأقترب من تخصصي أكثر.

ذات يوم، وفي إحدى الحصص سألت طالبة عن اسمها، فأجابت الطالبات بشكل جماعي: "مس هاد البنت إمها مطلقة"، وبدت على الطالبة ملامح الإحراج والحزن، فحاولت الخروج من الموقف قائلة: السؤال موجه ليها وليس لكن. أردت معرفة الاسم، وليس التدخل في خصوصيات الآخرين، وهنا أدركت أهمية مراعاة مشاعر الآخرين، ومعرفة ظروف الطالبات التي تترك أثراً في شخصية الطالب وفي أدائه.

وأعود لأقول طموحي لا حدود له، ففي العام 2007، تقدمت بطلب إلى جامعة الإسكندرية في جمهورية مصر للالتحاق في برنامج الدكتوراه في اللغة العربية، وتم قبولي، فرحت كثيراً، وقلت في نفسي: ها أنا أوشكت على الوصول إلى ما أصبو، وبعد مرور قرابة فصل دراسي، أصدرت وزارة التربية والتعليم قراراً يقضي بضرورة إقامة الطالب في بلد الدراسة طيلة مدة الدراسة، وأن يكون التعليم نظامياً، وهنا غلبت علي عاطفة الأمومة، فمن الصعب أن أترك أولادي وهم في سن الشباب أشهراً متتالية دون متابعة، قلت أضحي بالشهادة وأتاجر في فلذات كبدي.

وفي العام 2008، تقدمت لوظيفة مديرة مدرسة، وتم قبولي، وكان تعييني في المدرسة نفسها التي تعينت فيها معلمة في بداية مشواري، وأصبحت مديرة في مدرسة كانت المعلمات فيها زميلاتي بالوظيفة

طالبتان من مدرسة بنات رافات الأساسية تعملان على تنفيذ مجسم فني ضمن مشروع أطفال الشمس مع الفنانة دينيث ودارتشيج من سيريكلانكا.

نفسها، ولا أنكر أن هذا كان له تأثير سلبي في نظرة المعلمات "هي أقل خبرة منا، هي أصغر سناً منا، هي في عمر أولادنا، كيف ستوجه لنا الأوامر؟

أثناء عملي في الإدارة تنقلت بين مدارس عدة، أكسبتني خبرة في التعامل مع الآخرين، واجهت تحديات عدة؛ فعمل المديرة ومسؤولياتها تختلف تماماً عن مهام المعلمة.

ومن هذه التحديات استلام المدرسة بعد إدارة مترهلة تقليدية لا تعنى بالتطوير ومواكبة المستجدات، التعامل مع أنواع مختلفة من الشخصيات، التحديات المالية التي تقف حائلاً دون تحقيق ما نرغب، الضعف الأكاديمي لدى البعض في المواد الأساسية، عدم انتماء بعض المعلمات لمهنتهن، وبالتالي ضعف في الأداء.

الكثير من المسؤوليات والأعباء التي تثقل الكاهل، وتنتقل معي إلى البيت لتكون على حساب بيتي وأسرتي.

كم واجهت من المعلمات العنيدات اللواتي تصر الواحدة منهن على الأسلوب التقليدي، وتتمسك برأيها. بالحوار وبالنقاش، وخوض غمار التجربة، وعقد المقارنة بين ما كان عليه الوضع وما آل إليه بعد التغيير، اقتنعت بضرورة التغيير وجدواه.

فإحدى المعلمات التقليديات، قامت بتصوير حصص عدة لها، وبعد مشاهدتها اكتشفت نقاط الخلل، ووضعت تغذية راجعة لنفسها، وبادرت بتغيير أسلوبها، وكان له كبير الأثر.

من خلال تجربتي في الإدارة، أدركت أن التواصل البنَّاء، واحترام آراء الآخرين وتقبلها ضروري، وأن العمل بروح الفريق يداً بيد يؤتي ثماره، وأن الكلمة الطيبة تشحذ الهمم، وأن لكل شخصية مفتاحاً خاصاً يقود إليها.

ولا أغفل عنصر التحفيز والتشجيع وما له من أثر طيب في رفع المعنويات؛ سواء أكان لدى المعلمة أم الطالبة، فكلمة طيبة تحرك الطاقة الكامنة، وتفجر القدرة على العطاء.

آخر موقف حدث معي هو مشاركة المدرسة في مسابقة أفضل جدارية على مستوى المديرية، قمت بتشجيع معلمة التربية الفنية، وحث الطالبات، فباشرن بالعمل على قدم وساق، وبعد أيام عدة، رأيت أن الجدارية ليست بمستوى المعلمة والطالبات، فدعوت المعلمة إلى غرفة الإدارة، أثنيت عليها وعلى جهدها المتواصل، وداعبت مشاعرها بعبارات المدح والتشجيع، وأنها تستطيع الحصول على المرتبة الأولى، وفي اليوم التالي رأيت المعلمة قد أعدت جميع الأدوات وباشرت برسم جدارية أخرى، بمساعدة الطالبات، وفازت بالمرتبة الأولى.

الإدارة الحكيمة هي التي تقود السفينة، وتبدأ من ذاتها، ومن ثم تنطلق نحو الآخرين، عليها أن تكون قدوة يحتذى بها، لديها القدرة على خلخلة القناعات، والتأثير في الآخرين، وتنظر إلى الجميع بعين العدالة.

**مديرة مدرسة بنات رافات الثانوية**

طالبات مدرسة بنات رافات الأساسية تعملان على تنفيذ مجسم فني ضمن مشروع أطفال الشمس مع الفنانة دينيث ودارتشيج من سيريكلانكا.